الإسلام في الوعي الغربي

مقدمة

تتأثر الصورة الذهنية بين المجتمعات، بالمخزون والذخيرة الثقافية لدى هذه المجتمعات، حيث تتلون شخصيات الأفراد في المجتمع بهذا المخزون، وصورة الإسلام في الوعي الغربي تعود إلى تراكمات تاريخية، كالحروب الصليبية وثقافة عامة، نتج عنها تشويه لصورة الإسلام في الغرب، وقد تأثرت ثقافة الأجيال الغربية بهذا المخزون الثقافي وعززته الكتابات الأكاديمية المشوّهة للصورة العربية والإسلامية، ناهيك عن براعة وسائل الإعلام وتفننها في التشويه بجميع أصنافها ومختلف توجهاتها.

تعود جذور الصورة المشوهة عن الإسلام والعرب في العقل الغربي، بداية العلاقة التي نشأت وتطورت بين الإسلام والمسيحية خلال القرون الأولى لظهور الدين الإسلامي، وقد تكونت خلال القرون الممتدة من القرنين الثامن إلى الثاني عشر الميلاديين،صور أسطورية مزيفة عن الإسلام والعرب ظلت مهيمنة على العقل الغربي حتى وقتنا الحاضر.

ولفهم صورة الإسلام في الوعي الغربي، ماضيها وحاضرها، ومعرفة ملابسات الصراع، وتجليات المركزية الغربية الثقافية والسياسية الراهنة، لابد من التوغُّل في الأعماق، والبحث عن جذور تشكيل هذه الصورة، والوقوف على الروافد والمنابع التاريخية، من الاستشراق الأكاديمي، والكتب المدرسية والأدبيات الغربية عموما، التي تُسْتَقَى منها تلك المركزية، والنزعات العنصرية الغربية حيال الشرق وعوالمه، لأن الحاضر حلقة في الزمن مندمجة بإحكام بسلسلة الحلقات السابقة.

ولا نغفل بعدا مهما، وهو البعد الإعلامي في تشكيل هذه الصورة وتكوين الرأي العام الغربي تجاه الإسلام والمسلمين، ولذا لا يمكن أن تتضح صورة الحاضر وتتبين تماما ملامحها، وأبعادها إلا بإبصارها في نسق الحلقات الأخرى، والتي بمجموعها تشكل سلسلة الزمن الحضاري.

وتربط بين كل هذه المراحل التاريخية الممتدة عبر قرون عديدة، فكرة استولت على العقل الغربي والمتمثلة في فكرة "التفوق"، ولذلك فالغربيون يرون أن الغرب هو مركز العالم، وأنّ الحضارة الغربية بموروثاتها الدينية ومنظوماتها الفكرية هي "الحضارة" التي ينبغي أن تسود العالم، وأنّ ما عداها لا اعتبار له ويجسِّدون في أقوالهم وأفعالهم مقولة "الإنسان الأبيض"، وهو الغربي المسيحي، هو وحده المُؤَهَّل لقيادة الإنسانية، وهو مكلف برسالة "تنويرية" "لتحضير العالم".

ومن ركائز هذه الفكرة أيضا عدم الاعتراف بالآخر، والسعي حثيثا لإزاحته عن المنافسة، وقد اعتبر متبني مركزية الغرب في العالم، أنّ الإسلام – دينًا وحضارة وقيماً وواقعًا –يمثل تحديًا كبيرًا للغرب، ويقاوم

نزعة الهيمنة في الحضارة الغربية، بل ينافسها ويزاحمها، ولذلك يتفق هؤلاء على ضرورة إزاحته من الطريق فهو الخطر الذي لابد من مواجهته بلا توقف.

أولا: جذور تشكيل صورة الإسلام في الوعي الغربي:

احتك العالم الإسلامي بالغرب باكرًا، وربما حتى قُبَيْل الإسلام، إذ كان للوجود الروماني في شرق المتوسط، ولمعرفة اليونان لأجزاء من العالم العربي والإسلامي ما يمكن أن يشكل تأسيسا تاريخيا لعلاقات ثقافية وسياسية، حيث ورثت الحضارة الإسلامية ثقافة البحر المتوسط بعامة وتمكنت من استيعابها، بل ومنذ مرحلة مبكرة، أي منذ الفتوحات الإسلامية، أين وصلت الثقافة والوجود العربيان إلى أجزاء كبيرة من أوروبا[1].

وتعود جذور تشكيل صورة الإسلام في الوعي الغربي، إلى بداية هذه العلاقة التي نشأت وتطورت بين الإسلام والمسيحية، خلال القرون الأولى من ظهور الإسلام، وتطورت هذه العلاقة التاريخية والحضارية عبر مراحل، أبرزها: مرحلة الغزو العربي الذي تم في القرنين السابع والثامن الميلاديين مرحلة الحروب الصليبية، من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر، مرحلة الغزو الاستعماري الذي بدأ منذ بدايات القرن التاسع عشر، وامتد حتى النصف الثاني من القرن العشرين، ثم تأتي مرحلة ما بعد الاستعمار[2].

1. صورة الإسلام في القرون الوسطى:

تنامت بذور العداء المسيحي للإسلام والعرب، مع الفتوحات الإسلامية لبيزنطة وأوروبا، خلال القرنين الثامن والعاشر الميلاديين، عندما تجاوزت الجيوش الإسلامية بيزنطة لتصل إلى إسبانيا وجنوب إيطاليا والغال الجنوبي[3].

وقد استمد الوعي الغربي صورته الذهنية عن الإسلام في القرون الوسطى، من كتابات ونشاطات اللاهوتيين النصارى، ويرى (ريتشارد سوذرن) في كتابه "صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى"، أنّ المصدر الذي استقى منه الغربيون تصورهم عن الإسلام، هو كتبهم المقدّسة، ويؤكد أن اللاهوتيين الغربيين كانوا قلقين مما أسموه بتأثير القيم الإسلامية على القيم المسيحية، تأثيرا تدميريا عندما تواجهها، ورأى هؤلاء فيما بعد أنّ حماية المسيحية من الإسلام لا تكون إلاّ بضربه عسكريا والاستيلاء على أرضه وإقناع معتنقيه باتخاذ المسيحية دينا[4].

2. صورة الإسلام في الحقبة الصليبية:

كان للحروب الصليبية تأثيرات مهمة في صورة الإسلام في الغرب، فالمؤلفات الغربية عن الحروب الصليبية، ما هي إلاّ محاولة من العالم المسيحي لتخليص الأراضي المقدسة والمسيحيين من أيدي المسلمين، الذين يمارسون كل أنواع التعصب والاضطهاد ضد المسيحيين في تلك الأراضي ويصور ذلك التعصب والاضطهاد للمسيحيين، على أنّه سياسة اتفق عليها كل أمراء المسلمين، وعلى رأسهم سلطان دمشق، واعتبروا كل مسيحي في الأراضي العربية بمثابة أسير حربي[5].

اتسمت رؤية الصليبيين للإسلام والعرب في هذه المرحلة، بالرؤية الشعبية المشبعة بالخيالات فكانوا يعتبرون المسلمين وثنيين، ومحمداً ساحراً، لا بل هو مصاب بالصرع، وعليه فإنّ الحروب الصليبية ساعدت في تسميم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي، عن طريق تفسير التعاليم والمثل الإسلامية العليا تفسيرا خاطئاً ومتعمداً، فمحمد عدو للمسيح، ودينه ينبوع للفسق والفجور، والانحراف وراجت لدى الغربيين الفكرة العامة عن الإسلام بأنّه يدعوا إلى عبادة الشهوة والوحشية[6].

إنّ الأذى الذي جلبته الحروب الصليبية، لم يقتصر على اصطدام استعملت فيه الأسلحة، بل كان أولاً وقبل كل شيء أذاً عقلياً، نتج عنه تسميم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الإسلامية تفسيرا خاطئاً ومتعمداً[7].

إنّ الحروب الصليبية هي أسوأ ذاكرة تُشَوِّه صورة الإسلام عند الشعوب الغربية، وخاصة عند الأجيال الجديدة، التي كان يُنتظَر أن تتخلص من ثقل هذه الذاكرة السيئة التي تدفع بها إلى استعداء الإسلام، بدل البحث عن نظرة جديدة تتخذ من المستقبل منظارا لها، وحاضرا نحو علاقات أفضل.

3. صورة الإسلام بعد الحقبة الصليبية:

بعد انتهاء الحروب الصليبية، وعودة ميزان القوة للميل نحو المسلمين، كانت القوة الإسلامية تنمو وتتعاظم، وكان العثمانيون على الحدود الشرقية لأوروبا يقتحمون ويتقدمون حتى وصلوا إلى المجر واحتلوها.

وأمام هذا الاجتياح الإسلامي، لم يكن أمام الأوروبيين إلاّ تغيير خططهم العسكرية إلى ما أسموه "الصليبية الروحية"، التي تركز على الغزو السلمي لعقول المسلمين، عن طريق تعلم الأوروبيين علوم المسلمين ليتمكنوا من تشويه العقائد الإسلامية وتاريخ الإسلام[8].

ومن العوامل التاريخية التي ساهمت في تشويه صورة الإسلام والعرب في هذه المرحلة، خلط الغرب بين العرب والأتراك، بحيث تُحمل العرب كل السلبيات المعروفة عن الشخصية التركية ويرجع ذلك أساسا إلى أنّ الدولة العثمانية عندما سيطرت على البلاد العربية، أصبحت الصورة اتجاه هذه الشعوب هي صورة الشعب التركي أو العثماني، خاصة وأنّ الإسلام الذي يُميِّز تلك الشعوب جعل النظرة إليها واحدة، فهي شعوب تتبع الإمبراطورية العثمانية، وهي دولة إسلامية[9].

4. صورة الإسلام في مرحلة الغزو الاستعماري:

إنّ مرحلة الغزو الاستعماري الذي بدأ منذ بدايات القرن التاسع عشر، وامتد حتى النصف الثاني من القرن العشرين، وفي هذه المرحلة تبلورت في أوروبا النزعة العنصرية ضد العرب، ولم يقنع الغرب، بالترويج لصورة مزيفة عن العرب تتسم بالإجماع، بل إنّه حرص عن طريق فلاسفته وعلمائه الاجتماعيين على رسم صورة تفسيرية تركز على قصور العرب وتخلفهم، وفي هذه الصورة سنجد عديدا من الأحكام، من بينها ما قرره جورج ديهاميل، عضو الأكاديمية الفرنسية في كتابه "حضارة فرنسا"، من أنّ "الذهنية الشرقية عاجزة تمام العجز عن التفكير التركيبي وعن تجاوز الذات"[10].

قُبَيْلَ بداية القرن التاسع عشر، ترسّخت لدى العلماء الغربيين القناعة بأنّ الشرق فاقد للحيوية والروح بشكل أساسي، وأنه يحتاج إلى الغرب ليبعث فيه الحياة، ويرى إدوارد سعيد أنّ هذه النظرة تتفق تماما مع أهداف المستعمر في تلك الفترة، وأنّ بريطانيا وفرنسا بالذات توصلتا إلى أنّ الشرق المتدهور والفارغ من الثقافة أصبح بحاجة ماسة إلى إمداده بالحضارة والقيم الغربية[11].

5. صورة الإسلام في الحقبة المعاصرة:

إنّ الغرب يواصل اليوم محاولاته المستميتة، لإبقاء هيمنته الثقافية والاقتصادية في العالم الإسلامي لأنّه يدرك أنّ هذه الهيمنة تحقق له أهدافه الأيديولوجية والسياسية، وتعينه على أن يظل في مركز القوة والتفوق، ولذلك فإنّ حاجة الدوائر السياسية والأيديولوجية الغربية إلى تشويه صورة الإسلام والعرب ما تزال قائمة حتى الآن[12].

ولئن شغل هذا الغرب الخطر الشيوعي الذي تمثل في الاتحاد السوفييتي فترة من الزمن، فهو لم ينس عدائه للشرق، وعداءه للعرب وللمسلمين، على الرغم من أنّه استغلهم للوقوف في وجه المد الشيوعي، وما إن زال الاتحاد السوفييتي من الوجود حتى تحركت ضغائن "الصهيوصليبية" الكامنة فتوهمت الإسلام عدُوًا، وبدأت بحشد طاقاتها ضده، فالعدواني يحتاج إلى عدو، فإن لم يجد عمل على إيجاده، لأنه هو وحده الذي يُسَوَّغ له الاعتداء[13].

وتتناول المستشرق الإيطالية "إيزابيلا كاميرا دافيلتو" هذا الموضوع بشكل أوضح وأكثر تفصيلا فتقول: "الغرب كان وما يزال بحاجة إلى اختراع عدو حتى يضمن لنفسه خطًا دفاعيًا، ويضل مرتفعا ومتعاليا على ما تبقى من العالم لسنين طويلة، أو حتى لعقود، كان هذا العدو متمثلا بالشيوعية وبالمعسكر الشرقي، وعندما انهارت الشيوعية برز لدى الغرب التساؤل التالي: من سيكون عدونا المقبل؟! وإذا به يسحب من خزانة تراكم عليه غبار الزمن، صورة العدو التاريخي القديم المتمثل بالعالم الإسلامي" [14].

ثانيا: روافد تشكيل صورة الإسلام في الوعي الغربي:

1. صورة الإسلام في الاستشراق الغربي:

تعد حركة الاستشراق، واحدة من أهم وأخطر القنوات التي أسهمت في تكوي الصورة المشوهة عن الإسلام، وترسيخها في تلافيف العقل الغربي، الفرد والجماعة.

فبعدما احتل الإسلام مكانه في التاريخ، وأثَّر في حركته أثره العظيم، اضطرعلماء الغرب إلى دراسته دراسة واسعة مستفيضة لفهم أحداثه ومضامينه، التي باتت تهدد معتقداتهم، ولم يكن هم معظم المستشرقين، سوى الطعن في هذا الدين الجديد وتشويهه وتحريف حقائقه، وتكفير النبي الأكرم، ولصق التهم الباطلة برسالته... في محاولة لإبعاد الشعوب الغربية عن التطلع إلى هذا الموقف مما هم فيه من حيرة وقلق وظلم واضطهاد، ويصرف أنظارهم عن نقد ما لديهم من عقيدة وكتب مقدسة[15].

إذ صور هؤلاء المستشرقين الإسلام، في صورة الدين الجامد الذي لا يصلح للتطوع، وهم يعمدون إلى اختيار البيئات الإسلامية التي نالها أكبر قسط من الضعف والهزال، ويجعلونها نموذجا للإسلام وغاية

دراسات الاستشراق هي خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس المسلمين وغيرهم من الشرقيين، وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخنوع للمدنية الغربية الحديثة[16].

ولم يقتصر المستشرقون في بحوثهم على علم واحد، وإنما تناولوا مختلف العلوم، ولم يلتزموا بالحياد والموضوعية في أغلب بحوثهم، إذ نجدهم سلكوا سبل التحريف والتشويه في دراستهم عن القرآن الكريم، والطعن في مصدره، وكذلك الطعن في السنة وصحتها، وامتد التشويه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحسب قول المستشرق البريطاني "ويليام موير" «إن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن، عنادا ضد الحضارة والحرية الحقيقية»[17].

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه، وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين، وهكذا نشأت هناك رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار، وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا لأنفسهم أن يكون عملهم وسيلة لإذلال المسلمين، وإضعاف شأن الإسلام وقيمه[18].

ففي فرنسا كان هناك عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال إفريقيا، وعلى سبيل المثال، كان المستشرق "دي ساسي"، اعتبارا من عام 1805م، يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية، كما كان "ماسينيون" إلى عهد قريب مستشارا للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشؤون الإسلامية[19].

وبشكل عام، فقد ورث الاستشراق الأمريكي القوالب النمطية الأوربية وسعى إلى تحقيق الأهداف نفسها: السيطرة على الشرق، ووضع "خطر" الإسلام تحت التحكم الغربي.

وقد نجح الاستشراق في رسم صورة للشرق مشوهة كليا، مظهرة ما هو مضاد لرموز الغرب، ولهذا فإن الاستشراق كان ولا يزال له أكبر الأثر في صياغة التصورات الغربية عن الإسلام وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة.

2. صورة الإسلام في الكتب المدرسية الغربية:

تعد المدرسة أقوى المؤسسات الاجتماعية التي تسهم في تكوين الصورة النمطية عن الذات والآخرين، وفي ذلك يقول "مارسيل بوازار" «إن المدرسة هي التي تؤثر أشد التأثير على الصورة التي تكونها الأجيال الفتية، فيما بعد عن الشعوب الأجنبية والعلاقات بين الثقافات المختلفة»[20].

وتعد الكتب المدرسية جزءا أساسيا ورئيسيا في الجهاز المدرسي، فهي ركيزة التعليم النظري في المراحل كافة، وفي المرحلتين الابتدائية والثانية خصوصا، إذ يعتمد معظم الأساتذة والمدرسون على الكتب المدرسية اعتمادا كثيفا، إن لم يكن مطلقا بسبب نقص التدريب أو عدم الاهتمام أو ضيق الوقت في أغلب الظن، وأقلية من المدرسين فقط هم الذين يستخدمون القراءات التكميلية أو الاطلاع الخارجي[21].

وتشير الدراسات في حقل علم النفس الاجتماعي المرتبطة بعملية التنشئة الاجتماعية، إلى أن المعرفة المكتسبة في المرحلتين الابتدائية والثانية تفضي إلى ترك أثر دائم، ويمكن تقصي جذور المواقف التي يتخذها البالغون فيما يتعلق بمجموعات معينة جزئية في هذا التوجيه[22].

يقول العالم التربوي "لوثر إيفانز" «إن الكتب المدرسية والمدرسين يمكن أن يكونوا بمثابة البذرة لمحصول من التفاهم الدولي والصداقة الدولية من خلال عرض الحقائق عرضا صحيحا من الناحيتين الكمية والنوعية، وبمنظور سليم، ولكن يمكن أيضا أن يكونوا بذرة لمحصول من سوء التفاهم والراهية والازدراء بين أبناء البلد واتجاه أنماط الحياة الأخرى، وذلك من خلال عرض المقولات غير الدقيقة وغير المتوازنة وغير المناسبة، على أنها حقائق[23].

ولقد تناول عدد من الباحثين صورة الإسلام والعرب في الكتب المدرسية الغربية، وتوصلوا إلى القول بأن الإسلام كان أكثر الموضوعات التي تضمنتها هذه الكتب تعرضا للتحيز والتشويه والاستبعاد.

قامت الباحثة "مارلين نصر" بتحليل صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، حيث حللت الصورة في كتب القراءة والتاريخ والجغرافية والتربية المدنية في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي، وشمل التحليل 85 كتابا خلال عام 1986م، إن نصف الكتب المدرسية تضمنت نصا أو أكثر عن العرب والإسلام، وشكلت 2 % من مجموع النصوص، منها (علي بابا والأربعين حرامي، والمغامرة الأخيرة الكبرى للطوارق، وفي مصنع السيارات، والبحث عن الواحة،...إلخ)، ويلاحظ أن غالبية هذه الصور قد تركزت في المرحلة الابتدائية على الصحراء، والحكايات والمدينة العربية والريف، وقد غيبت هذه الصور الزمن والحاضر للعرب، وتهربت من الحاضر ورسمت النمطية عن العرب، ولم تفرق بين العرب والبدو والمور[24].

أما صورة المسلمين والعرب في الكتب المدرسية في ألمانيا الاتحادية تحوي كثيرا من الجوانب السلبية والسيئة، فيشير كتاب في مادة التربية الدينية مقرر على الصفين السابع والثامن في إحدى الولايات الألمانية إلى أن كل مسلم مكلف بمقاتلة أعداء الإسلام[25].

أما ملامح الصورة النمطية عن العرب والمسلمين في الكتب الدراسية الأمريكية بشكل عام أنهم أثرياء يشترون أمريكا ويتسببون في ارتفاع الأسعار، ولا سيما العقارات، وأنهم لا يكرهون الغرب، ويشكلون خطرا ينبع بشكل عام من كراهيتهم للمسيحيين، أما "أوبك" فهي مرادفة للعرب، ودائما تأتي بمضمون سلبي فضلا عن أن العرب أعداء العالم ومثيرو الحروب[26].

ومن النتائج الأساسية التي نخلص إليها، هو أن تغطية الكتب المدرسية الغربية للوطن العربي تغطية قاصرة وغير دقيقة وسلبية في معظمها، وأن ارتفاع نسبة الأخطاء والحذف والمقولات المتحيزة تزود القارئ بصورة مشوهة عن الوطن العربي.

ولهذا، فإن ما يتم تلقينه للتلاميذ في مدارسهم من الكتب وشرح معلميهم يرسخ في أذهانهم ونفوسهم ويصاحبهم في مراحل حياتهم، مما أشربوا من معلومات أملاها روح التعصب والاستعلاء العرقي والنظرة العنصرية، فجاءت بعيدة عن الحقيقة والنظرة الموضوعية في معرض الحديث عن الشعوب الأخرى.

3. صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية:

تعتبر وسائل الإعلام من أهم عوامل تكوين الرأي العام وتشكيله، وشهدت السنوات الأخيرة الاعتراف المتزايد بالدور الذي تقوم به وسائل الإعلام في المجتمع بغض النظر عن طبيعته، ومن هنا يأتي التسليم بالدور الهام الذي تؤديه وسائل الإعلام في مختلف المجتمعات، سواء المجتمعات التقليدية أو المجتمعات الانتقالية، أو المجتمعات الحديثة، على الرغم من الفروق الرئيسية لدور الإعلام طبقا لطبيعة المجتمع واحتياجاته الإعلامية[27].

وأصبحت وسائل الإعلام بالنسبة لكثير من الناس النافذة التي يطلون من خلالها على العالم، وأهم مصدر يستقون منه معلوماته عن هذا العالم المحيط به، وفي دراسة أجريت عام 1977م على العينة القومية الأمريكية، حيث تبين أن 95 % من أفراد العينة أجابوا على السؤال: من أين حصلت على معلوماتك حول ما يدور في العالم؟ أجابوا بأنهم حصلوا عليها من وسائل الإعلام[28].

فمعرفة الجمهور بدول العالم وتكوين الرأي العام إزاء العلاقات الدولية ينظر بشكل كبير من خلال وسائل الإعلام لا سيما التلفزيون والصحف، فمن خلال تقديم الصحافة لشؤون السياسة الخارجية، تصبح الصحافة مراقبا بديلا عن الجمهور، وبدرجة كبيرة، وتؤدي وظيفة هامة تتمثل في خلق الواقع الخارجي لجمهورها، وقد ذكر "كوهين Cohen" 1963م أنه بالنسبة لكثير من أعضاء الجمهور، فإن الخريطة السياسية للعالم يتم رسم معالمها من خلال الصحفيين، والمحررين، وليس من خلال رسامي الخرائط، ومن ثم تتحدد كيفية إدراك العالم الخارجي وتشكيل الرأي العام اتجاهه من خلال الطريقة التي يراه من خلالها الصحفيون والتي يصفونه بها[29].

وتمارس وسائل الإعلام دورها المجتمعي في التأثير على تشكيل صورة جماعات قومية معينة، فالإعلام يسهم في بناء الجانب الإدراكي للفرد عن جماعة قومية من خلال إمداد الفرد بالمعلومات والآراء والتحليلات وتقديمها في قالب بعينه، فوسائل الإعلام ليست مجرد قناة تقوم بتقديم المعلومات عن مجتمع ما أو قضية ما بحياد وتغطية شاملة[30].

وتعد وسائل الإعلام المصدر الرئيسي للمعلومات عن الدول الأجنبية والأحداث العالمية، حيث تقدم هذه الوسائل يوميا تيارا من الأخبار ووجهات النظر والصور والعناوين التي من شأنها أن تؤدي إلى خلق وتدعيم صور ذهنية "images" أو صور نمطية "stéréotypes"، ليس فقط للدول التي تصدر منها، ولكن أيضا لكافة الدول[31].

يعترف عالم الاجتماع الفرنسي "جون بول شارنيه Jean Paul charnay" بأن وسائل الإعلام الجماهيرية في الدول الغربية هي المسؤولة عن توليد نمط من التأثير الإشكالي، الذي يربط بين العنف

والإسلام، ويصف طريقة وسائل الإعلام الغربية في طرح الحقائق بالتي يرثى لها لأنها تساعد على توليد وتكوين تصور معين لدى المواطن الأوربي عامة، والفرنسي خاصة، بسبب أن تلك الوسائل الإعلامية تتعمد اختيار وانتقاء بعض السلوكات والتصريحات لبعض الساسة العرب والمسلمين الذين تبنوا بعض الأعمال (الإرهابية) لغرض تكبيرها وطرحها بشكل خاص، يلقى صدى تحريضي لدى المواطن العادي[32].

وقد عبّر الصحفي الغربي المشهور، "إريك رولو" عن هذه الحقيقة أوضح تعبير عندما قال مخاطبا المشاركين في ندوة دولية عن"الإعلام الغربي والعرب"، عقدت في لندن سنة 1979: "اسمحوا لي–بادئ ذي بدأ– أن أعترف بالتحيز، ذلك أنّنا معشر الصحفيين متحيزون بطريقة أو بأخرى، من يمكن أن يكون موضوعيا أكثر من المصور؟ ومع ذلك فإن نوع العدسة التي يستعملها والزاوية التي يلتقط منها الصورة التي يريد تؤثر في الصورة التي يمكن أن تخرج عن مصور آخر يمتاز بـ "الموضوعية" و "التحيز" كالمصور الأول. نحن لسنا أولاد الأنابيب والمختبرات، نحن بشر، ولكل منا ثقافته وخلفيته وجذوره. لكل منا فلسفته في الحياة وتجاربه وأيضا حساسياتها الخاصة.

وهذا تصريح واضح بتحيز الصحفيين الغربيين، في تغطيتهم للعالم العربي والإسلامي، وقد أشار إلى تأثير موروثهم الثقافي في رأيتهم للقضايا العربية وطريقة كتاباتهم عنها.

هذه المسيرة التاريخية الطويلة من المد والجزر بين الشرق والغرب، قبل المسيحية وبعد الإسلام، تتواصل اليوم في كافة الميادين بوجوه متعددة، وفي كل مرة يلوح في أفق الشرق بريق وعي قومي أو إسلامي، يستنكر الغرب عداه، ويتحفز لوأده، من أجل ذلك يتابع الغرب باهتمام وعن كثب كل مظهر من مظاهر الصحوة الإسلامية للانقضاض عليها قبل أن يصلب عودها.

خاتمة

إنّ الصورة الذهنية المسيئة للإسلام والعرب التي يروج لها الإعلام الغربي اليوم، ليست إلاّ امتدادا لتلك الصورة التي صنعها اللاهوتيون المسيحيون في العصور الوسطى، بهدف حماية المسيحية من زحف الإسلام، ورسخها في الوجدان الغربي غلاة الصليبيين الطامعين في أرض العرب، لتحريض أتباعهم في أوروبا على غزو بلاد المسلمين، وهي ذاتها الصورة التي سخَّر المستشرقون والمنصِّرون أبحاثهم ودراساتهم وجهودهم العملية لتثبيتها في العقل الاستعماري للغرب، واليوم تكمل بيوت الخبرة في الجامعات ومراكز البحوث والدراسات الشرقية والإسلامية في الغرب، التي استفاد منها السياسيون الإمبرياليون لإحكام سيطرتهم الفكرية، والسياسية، والاقتصادية على العالم الإسلامي.

كما أنّ وسائل الإعلام الجماهيرية، التي تعد منابر التوجيه والتأثير تعمل حاليا – بسبب ما تملكه من قدرات تقنية وأساليب جذب مُبْهِرة – على الترويج لهذه الصورة المسيئة للإسلام والعرب على المستوى الدولي، حتى أصبحت هذه الصورة مادة إعلامية جماهيرية، يُروِّجها الإعلاميون المعاصرون طمعا في

تسويق بضاعتهم الإعلامية، وخدمة لأغراض بعض التوجهات الغربية المعادية لكل ما يمُتّ بِصِلَة للإسلام.

والمشكلة في جذورها، أنّ كل الطرق والروافد التي أخذ منها الغرب في تكوين رؤيته عن الإسلام لم تكن طرقا سليمة تصل به إلى تشكيل رؤية موضوعية وعلمية وأخلاقية، ابتداءاً من نشاط الاستشراق في السابق، إلى وسائل الإعلام اليوم، إلى غيرها من طرق أخرى.

ولا نغفل عامِلاً مُهِمًا له وزنه من التأثير السلبي، وهو ما نعيشه من تخلف شامل يعكس عنا صورة سيِّئة وفاشلة، خصوصا عند تلك المجتمعات التي قطعت أشواطًا من التقدم فالصورة التي تقدمها هذه الأوضاع المشتعلة بالإخفاقات والإحباطات والتناحرات، أبلغ وأوضح مما نقدمه من التعبيرات والنصوص والأفكار التي نُصور بها رؤيتنا الحضارية، والغرب من جهته أيضا استفاد من توظيف هذه الأوضاع الشديدة التخلف في تعزيز رؤيته في مجتمعاته وفي مجتمعاتنا أيضا لصالح أطروحاته.

الهوامش:

(1) أبو بكر باقادر: الرؤية المتبادلة بين الإسلام والغرب من زاوية إناسية، شؤون الأوسط، ع108 مركز الدراسات الإستراتيجية، لبنان، خريف 2002، ص35.

(2) عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، ط2، الهراء للإعلام العربي، الرياض، 1993، ص40.

(3) المرجع نفسه، ص43.

(4) عبد القادر طاش: الإعلام وقضايا الواقع الإسلامي،ط1، مكتبة العابيكان، الرياض، 1995 ص ص 107-108.

(5) نادية حسن ساري: صورة العرب في الغرب، المستقبل العربي، ع129، السنة 12، مركز دراسات الوحدة العربية، نوفمبر، 1989، ص78.

(6) مصطفى الدباغ: الإسلاموفوبيا، عقدة الخوف من الإسلام،ط2، دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان، 2001، ص44.

(7) عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، مرجع سابق، ص49.

(8) مرعي مدكور: الإعلام الإسلامي وخطر التدفق الإعلامي الدولي،ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص41.

(9) نادية حسن ساري، مرجع سابق، ص78.

(10) عبد القادر طاش:صورة الإسلام في الإعلام الغربي، مرجع سابق، ص41.

(11) إدوارد سعيد: الاستشراق، المعرفة-السلطة-الإنشاء، ترجمة كمال أبو ذيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981، ص223.

(12) المرجع السابق، ص41.

(13) محمد السماك: موقع الإسلام في صراع الحضارات والنظام العالمي الجديد،ط1، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1995، ص5.

(14) المرجع نفسه، ص10.

(15) علي يوسف نور الدين: الاستشراق والاستغراب قراءة نقدية، شؤون الأوسط، ع108، مركز الدراسات الإستراتيجية، لبنان، خريف 2002، ص101.

(16) عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، مرجع سابق، ص54.

(17) حسن علي الأهدل: الإعلام الإسلامي في مواجهة التشويه، المنهل، ع577، مج63، المملكة العربية السعودية، 2002م، ص51.

(18) محمود حمدي زقزوق: الإعلام الإسلامي في مواجهة الاستشراق، الدراسات الإعلامية، ع91، مركز العربي الإقليمي للدراسات الإعلامية للسكان والتنمية والبيئة، القاهرة، 1998م، ص22.

(19) عبد القادر طاش: الإعلام وقضايا الواقع الإسلامي، مرجع سابق، ص146.

(20) عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، مرجع سابق، ص75.

(21) غسان سلامة وآخرون: السياسة الأمريكية والعرب، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي، بيروت، لبنان، 1985م، ص302.

(22) المرجع نفسه، ص88.

(23) المرجع نفسه، ص303.

(24) ذياب البداينة: الصورة النمطية للعرب والغرب واليهود لدى الطلاب الأردنيين، مجلة العلوم الإنسانية، ع11، جامعة منتوري، قسنطينة، جوان 1999، ص44.

(25) الإسلام في غرب أوربا www. albayan. com. ae / Albayan/ book (24-12-2003) 2003, issue 286/ arabicilib 3 htm.

(26) المرجع نفسه.

(27) عاطف عدلي العبد: صورة المعلم في وسائل الإعلام، تقديم: فاروق أبو زيد، حامد زهران، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ص31.

(28) غازي إسماعيل ربايعة: الرأي العام والعلاقات العامة، دط، دار البشير، عمان، 1998، ص57.

(29) آمال كمال طه محمد: صورة العراق في التغطية الصحفية العربية والغربية في التسعينات، دراسة مقارنة أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم الصحافة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، 2001، ص54.

(30) عاطف عدلي العبد: صورة المعلم في وسائل الإعلام، تقديم: فاروق أبو زيد، حامد زهران، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ص58.

(31) المرجع السابق، ص53.

(32) محمد السماك: الإرهاب والعنف السياسي، ط2، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1992م، ص78.